سيرورة التّفخيم واحدةٍ من مظاهر الاقتصاد المورفونولوجي في العربيّة المعاصـــرة ـ محاولة في التّأصيـــل ـ

أ. د. أحمد طيبي، جامعة الدكتور طاهر مولاي بسعيدة، الجزائر.

ملخّـــــص

نروم في مقالنا هذا الاستفسار حول جانب منْ بنية المنتج اللّغوي للعربية المعاصرة الذي له سماته وخصوصياته التي يتفرّد بها، والتي تجعل منه بناءً فاعلاً كافياً يخوّل للعربية المعاصرة إنجاز مهام التّواصل بشكل أنسب، منْ خلال إلقاء الضوء على ظاهرةٍ مطّردة فيه كثيراً ما استوقفتْنا وشدّت انتباهنا، هي ظاهرة الاقتصاد الصّوتي الصّرفي Morphonological Economy التي تمثّلها، في هذا المقال، سيرورة التّفخيم، ومحاولة رصد خواصها المميّزة ووصلها بأسبابها ثم تأصيلها بربطها باللّغة النّموذجية.

الكلمات المفاتيح: سيرورة التّفخيم، الاقتصاد الصّوتي الصرفي، العربية المعاصرة، التّناغم، العملية التّواصلية.

Abstract

In this article, we are trying to inquire about an aspect of the product linguistic structure of the contemporary Arabic language, which has its own peculiarities and features, that make it an active structure and permit for Contemporary Arabic to accomplish communication tasks properly By shedding light on a steady phenomenon often attracted our attention, it's the morphonological economy phenomenon which is represented, in this article, by the Emphase Process, and try to identify its distinctive characteristics and connect it to its causes and then link it to standard Arabic.

Key words: Emphase Process, Morphonological Economy, Contemporary Arabic, Harmony, Communicative process.

تقديـــــم:

إذا اتّفق أنّ اللّغة ليس بمقدور الفرد الواحد أن يخْتَلقها، فهذا يعني أنّها منْ نتاج المجتمع[1]، وأنّ طبيعة التجمّع الإنساني هي التي فرضتْ وجودها[2] حيث لا يمكن لمجموعةٍ من الأفراد أنْ تعيش مع بعضها وتحيا حياتها دون أداة تربِط بيْن عناصرها، تُيسِّرُ تقاربهم.[3] فاللّغة، بهذا الشّكل، تحيا حياةً وظيفيّة داخل المجتمع الذي اِصطنعها، وتزداد أهميتها لدى الجماعة اللّغويّة كلّما رغب أفرادها التّواصل فيما بيْنهم، فلا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال افتِقادها في المجتمع إذا هُو أراد الإبقاء على كيانِه، وإذا هُو أراد الاستمرار في الحياة. يقول فندريس: «في أحضان المجتمع تكوّنتْ اللّغة، وُجِدتْ اللّغة يوم أحسّ النّاس بالحاجَة إلى التّفاهم... فاللّغـــة وهي الواقع الاجتِماعيّ بمعناه الأوْفى، تنتُج من الاحتِكاك الاجتماعيّ، وصارتْ واحدةً منْ أقوى العرى التي تربِط الجماعات، وقَد دانتْ بنشوئها إلى وُجود اِحتشاد اِجتماعيّ.»[4]

ولم يبْتعد ابن جنّي (ت 392 هـ) كثيراً عنْ هذا المعنى عندما قال: «حدّ اللّغة أصواتٌ يعبّر بها كلّ قومٍ عن أغْراضِهم.»[5] فالطّبيعة الاجتماعيّة للّغة واضحةٌ منْ خلال القَوْلين، فإذا ما أردنا أنْ نحدّد لها تعْريفاً يرتَكز على هذا الأساس، قُلنا أنّ اللّغة منْظومةٌ من الأصْوات الإنسانيّة[6]، اِصطنعتْها الجماعة اللّغويّة قصداً لتأدية وظيفةٍ رئيسةٍ هي تحقيق التّواصل بين عناصرها. [7]

ووفقاً لهذا الطرح، ولمّا كانت اللّغة تشكّل أحد أهمّ وسائل الاتّصال البشري التي يستطيع بواسطتها الإنسان نقل أفكاره ومشاعره لأقرانه من بني جلدته وتيسير التّواصل معهم مستخدما في ذلك وسائل مختلفة أهمّها الصوت، فإنّ البحث فيها يشكّل أولوية الأولويات ويستدعي بالغ الاهتمام منْ أطراف مختلفة متعدّدة التّخصّصات.

وفي هذا الإطار، ونظراً للأهمّية القصوى التي تكتسيها عربيتنا المعاصرة، وهي اللّغة العربية الفصحى التي اكتسبتْ حيويتها وتطورها منْ روافد استعمالاتها التّداولية نطقاً في الأحاديث الشّفوية بين المثقفين في المؤسّسات التّعليمية والدّوائر الرّسمية وما إلى ذلك منْ وسائل الإعلام المسموعة الإذاعية والمرئية كنشرات الأخبار ومواقع الاتّصال الأخرى المنطوقة المختلفة الجزائرية، فإنّنا نروم في مقالنا هذا الاستفسار حول جانبٍ منْ بنية هذا المنتَج اللّغوي الدّاخلية الذي له سماته وخصوصياته التي يتفرَّد بها، والتي تجعل منه بناءً فاعلاً كافياً يخوّل للعربية المعاصرة إنجاز مهام التّواصل بشكل أنسب، منْ خلال إلقاء الضوء على ظاهرةٍ مطَّردة فيه كثيراً ما استوقفتْنا وشدّت انتباهنا، هي ظاهرة الاقتصاد الصّوتي الصّرفي Morphonological Economy التي تمثّلها، في هذا المقال، سيرورة التّفخيم، ومحاولة تقديم إجابةٍ لها، ورصد خواصها المميّزة ووصلها

بأسبابها ثم تأصيلها بربطها باللّغة النّموذجية أو المعيار أو المثالية أو فصحى عصر الاحتجاج وهي العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ويمثل نموذجها الأرقى.

والمراد بالاقتصاد في اللّغة Economy Linguistic عموماً، هو محاولة اللّغة، والمتكلّم والمستمع طرفان من أطرافها، أن تَبْلُغَ تحقيق القدر الأكبر من المعاني والدّلالات والأهداف والفوائد، من خلال توظيفها لأقلّ ما يمكن من الجهود الذّهنية والعضلية، واستعمالها لأدنى حدّ من الوسائل التّعبيرية، «إنّه آداء مكثّف مختزل، ينقل الفوائد الكثيرة بوسائل تعبيرية ميسرة تحقّق القدر الكبير ممّا تتطلّبه المعاني للإبلاغ.»[8]

واللّغة في أصل وضعها وسيلة اقتصادية، فهي عبارة عن مجموعة من الإصدارات الصّوتية المحدودة تُؤدّى بها المعاني والمقاصد الكثيرة غير المحدودة، وهي تكشف عن امكانات ضخمة تنقل المعاني والتّصورات والتّجارب والأحاسيس والأحداث للتّواصل بين الأفراد والمجتمعات وتحقيق رسالة الإنسان في هذه الحياة بأدقّ وسيلة وأيسر آلية وأبلغ آداء. يقول أندري مارتيني: «إنّ ما يمكن أنْ نسمّيه الاقتصاد اللّسانيّ، هو ذلك البحث الدّائم عن التّوازن بين الحاجات المتناقضة التي ينبغي تلبيتها، حاجات التّبليغ منْ جهة، وخمول الذّاكرة والنّطق من جهةٍ أخرى.»[9] ويقول كذلك: «يمكن تصوّر التّطوّر اللّساني على أنّه محكومٌ بالتّناقض الدّائم بين الحاجات التّبليغيّة للإنسان وميله إلى تقليص نشاطه الذّهنيّ والجسديّ إلى الحدّ الأدنى.»[10]

هذا يعني أنّ وجود النّظام اللّغويّ وتحقيق فاعليته، رهينٌ بمدى انسجامه واستجابته لقوّتين متصارعتين؛ تعمل الأولى على رفع كفاءة النّظام إلى حدّها الأقصى، وتعمل الثّانية على تأمين غاية الإفهام، حيث يكون حجم الطّاقة المنْفَقة مُتناسباً تماماً مع كمّية الأخبار المنقولة وفْقاً لمحتوى القاعدة التي تقول أنّ كلّ موقفٍ تطلّب من المتكلّم صياغة شكلٍ تعبيريٍّ، وجبَ ألاّ يتضمّنَ أكثر ممّا يحتاج إليه إمْكان توصيل فكرته إلى ذهن المستمع[11]، أوْ وفْقاً لمبدأ الحدّين؛ الأدْنى والأقْصى Minimax Principle الذي نحدّده كما يلي: «يحاول المتكلّم أنْ يقلّل من التّعقيد البنيويّ السّطحيّ للمنطوق، بينما يحاول رفع مقدار المعلومات التي يوصلها إلى المستمع للحدّ الأقصى، فالاتّصال بفعّاليةٍ أمرٌ يشغل المتكلّم على نحوٍ واضحٍ، بينما لا يرهق نفسه منْ دون ضرورةٍ في العمليّة.»[12] فإذا كان هدف القوّة الأولى هو تقليص الفائض، فإنّ هدف الثّانيّة هو زيادته.[13]

والاقتصاد اللّساني، مجالٌ واسعٌ في اللّغة، يتحقّق في كلّ مستوياتها صوتاً وَصرفاً وَنحواً وَدلالةً ومُعجماً، ومنْ خلاله يحاول المتكلّمون «تحقيق حدٍّ أعلى من الأثر، منْ خلال بذل حدٍّ أدنى من الجهد»[14]، وهو المعنى ذاته الذي يدلّ عليه ذلك القانون

الصّوتيّ المعروف أحياناً بـ «قانون الجهد الأدنى»، وأحياناً أخرى بـ « نظريّة السّهولة والتّيسير»، وهو ما يعني كذلك أنّ المتكلّم في تعامله مع اللّغة نطقاً وإستعمالاً، يميل إلى التّقليل من المجهود العضليّ ويحاول ما أمكنه ذلك تسهيل العمليّة التّواصليّة وتيسيرها بينه وبين المتلقّي، وبحث تقليص نشاطهما الذّهنيّ والجسديّ إلى الحدّ الأدنى، فالاقتصاد اللّسانيّ بهذا الشّكل لم ينحصر أثره فقط عند المتكلّم، وإنّما تعدّاه ليتحقّق عند المستمع، فيُهوّن عليه، عندئذٍ، طريق الإدراك والفهم.[15]

والمتكلّم في بحثه الدّائم المستمرّ لبلوغ هذه الغاية، وهي غايةٌ طبيعيّة عند الإنسان، تظهر في جميع سلوكاته الحياتيّة وتصرّفاته اليوميّة عندما يريد تحقيق حاجاته بأقلّ كُلفةٍ وأدنى جهد، يحاول أنْ يتجنّب الحركات النّطقيّة الصّعبة التي يمكن الاستغناء عنها كلّيةً، ويستبدلها بما هو أخفّ منها وَأسهل.

ولا شكّ أنّ مفهوم الاقتصاد في اللّغة، يقابله في تراثنا العربي تمام المقابلة مفهوم «الخفّة» أوْ «الاسْتِخفاف» أوْ «التّخْفيف» في مقابل مصطلح «الثِّقل» أوْ «الاسْتِثقال»أوْ «التّثْقيل»، «وليس [في الواقـــــع] من النّاحية النّظريّة منْ فرقٍ بين التّعليل بالخفّة وَالتّعليل بالثّقل، فالعرب إذا استثقلتْ اِستعمالاً ما، طلبتْ الخفّة، وإذا طلبتْ الخفّة، فإنّها تنفر من الثّقل.»[16]

والخفّة أوْ الثّقل، منْ العِلل اللّغويّة كثيرة الدّوران وَالأكثر توظيفاً عند النّحاة باعتبارها مظهراً منْ مظاهر التّفسير اللّغويّ، يقول تمّام حسّان: «منْ مظاهر الطّاقة التّفسيريّة في النّحو العربيّ، ظاهرة التّعليل لأحكام النّحو وأقيسته، ولعلّ طلب الخفّة يكون أوسع العلل العربيّة مجال تطبيق، وحسبه أنّه يجد اعترافاً مؤكّداً منْ علم اللّغة الحديث، إذْ يجد لنفسه مكاناً مهمّاً بين مبادئه تحت عنوان «Economy of effort» أيْ الاقتصاد في المجهود.» [17]

وإذا كان النّظام اللّغوي في مجمله وعمومه،كما ذكرنا آنفاً، قائمٌ على أساس إقتصادي قِوامه حمْل مُستعمل اللّغة على التّعبير بـ «القليل المتناهي عن الكثير غير المتناهي»[18]، وهو ما يعني بدقّةٍ متناهيّة، إنفاق مجهودٍ عضليٍّ أقلّ، أوْ الالتزام بمبدأ الجهد الأقلّ أثناء تأدية وظيفة اللّغة الأهمّ التي هي التّواصل مع الغير، فإنّ المراد بالاقتصاد الصّوتي الصّرفي تلك التّغْييرات الصّوتيّة النّاتجة عنْ سياقات تجاوُر الوحدات القِطَعية الصّوتية وأَضْرُب تأليفاتها في الأبنيَة الصّرفية وفوق الصّرفية أثناء المشافهة والتّنقّل بين الأصوات في السّلسلة الكلاميّة المنطوقة وما يسْتتبِعه ذلك منْ مَساقات التّناغم Harmony المفضية مباشرةً إلى الاقْتِصاد في الجهد والتّقليل، إلى أدْنى حدٍّ ممكن، من المكوّنات والمراحِل التي تَقود إلى الوصول إلى النّتائج البنيويّة التي تتطلّبها

الأنساق اللّغويّة.

ومنْ هنا، فإنّ مختلف التّغيُّرات القِطَعية التي يمكن ملاحظتها على البنى اللّغويّة في العربية المعاصرة التي تفرضها سياقاتٌ صوتيّةٌ معيّنةٌ مشروطةٌ بتجاور الأصوات التي يحصل بينها تبادل التّأثير والتّأثّر تكون نتيجتها إفراز صورةٍ مبسّطةٍ يتدنّى مجهود النّطق بها إلى حدّه الأقصى.

فالحياة الوظيفيّة للعربية المعاصرة تتَفاعل بشكلٍ مُناسبٍ مع العمليّات الاقتصاديّة، فإذا كان «علْم الاقْتصاد هو البَحث عنْ مؤشّرات أمْثليّة الكفاءة لعلاقة الوسائل / الغايات في آداء المهام»[19]، فإنّنا نَفهم جيّدا لماذا تعْتمد اللّغة هذه الخصائص البِنائية ولا تعتَمد غيرها، ذلك أنّ فاعليتَها كنّظامٍ وكفايتَها موقوفةٌ على مثْل تلك المؤشّرات، فكوْنها لا تؤدّي أكثر من القدر المطلوب لتجسيد العلامات اللّغويّة، كما يقول بوهلر[20]، يعتبر في حدّ ذاته سمةً غايةً في الإقتصاد.

وعلى هذا، فضمان اِستمرار اللّغة، مهما كانت اللّغة، وضمان بقاء مجتمع متحدّثيها رهينٌ بمدى بقاء هذه الخِصّيصة ومدى اِستمراريّة وجودها في بنائها اللّغويّ.

ولا شكّ أنّه في هذا المقال العاجل يضيق بنا المقام لاستجلاء جميع صور الاقتصاد المورفونولوجي (الصّوتي الصّرفي) في العربية المعاصرة، وعليه سوف نقتصر في دراستنا هذه على معالجة ظاهرة واحدة تكاد تطّرد على ألسنة النّاطقين المثقّفين في القطر الجزائري على الأقلّ، يتعلّق الأمر بسيرورة التّفخيم Process Emphase ، فما هي حقيقتها؟ وما هي أضرب تحققها في الواقع النّطقي للعربية المعاصرة كما هو متحدَّث بها في الجزائر على ألسنة المثقّفين؟ وما هي الأعضاء النّاطقة الفاعلة في إحداثها؟ وما هي قيمتها نطقاً على مستوى الآلة المصوّتة عند المتكلّم؟ وما هو وجه ارتباطها بالعربية الفصحى النّموذج؟

أسئلة نحاول الإجابة عليها في الصّفحات اللاّحقة إن شاء الله تعالى.

يشير التّفخيم[21] Emphase في الأدبيّات الفونولوجيّة، باعتباره ملمحاً أكوستيكيّاً فضفاضاً، إلى حقائقَ فونيتيكيّةٍ مختلفةٍ ومتشابهةٍ في نفس الوقت، يجمعها اِنخفاض الجزء الأماميّ منْ ظهر اللّسان، وتراجع جزئه الخلفيّ إلى الوراء، ممّا يتسبّب في إحداث تضييقٍ على مستوى التّجويف الحلقيّ.[22] وقد أكّد ماكارتي McCarthy أنّ الصّوامت المفخّمة عموماً تشترك، حين نطقها، في اِنْغلاقها الحلقيّ.[23]

كانتْ هذه الحقائق الفونيتيكيّة والأوجه المختلفة للتّفخيم، في كثيرٍ من الأحيان، محلّ اهتمام العديد من الدّراسات والأبحاث الصّوتيّة العضوية

النّطقية منها والأكوستيكية[24]، فخُصَّتْ بتسمياتٍ دقيقةٍ تميّز إحداها عن الأخرى؛ فكان الإطْباق Velarization، وكان الاسْتِعْـــــــــــــــلاء Uvularization، وكان التّحْليق[25] Pharyngealization ، ومنْ شأن هذه التّحديدات المصطلحيّة أنْ تبيّن المستوى المقصود من هذا النّطق الثّانويّ وتعكس عند المهتمّين بهذا المجال، رغبَتهم في إبراز العضو النّاطق الثّانويّ المتسبّب في إخراج كلٍّ منها.

فالإطباق توصف به تلك الأصوات التي يتمّ في إنتاجها تفعيل الجزء الخلفيّ من اللّسان المنتفخ والمتراجع إلى الوراء تفعيلاً ثانويّاً فيُلامس حينها قِسْمه العُلويّ منطقة الطّبق، ويُحدِث قسمـــــــــه السّفلي تضييقاً على مستوى التّجويف الحلقيّ الأعلى[26] Cavity Pharynx Upper، يقول سلمـــــان العاني: «يتّضح، بعد فحص هذه المجموعة المسماة بالسّاكنات المطبقة Velarized أكوستيكيّاً وفيزيولوجيّاً، أنّ المنطقة المُنْشغِلة في إحداثها ليست الطّبق فقـــــــــــــط، ولكنّها منطقة الحلق، وعلى هذا يبدو أنّ وصفها بالأصـــوات [المحلقة] Pharyngealized أنْسب من وصفها بالأصوات المُطبقة[27] Velarized.»

والاسْتِعلاء توصف به الأصوات التي يحدث في إنتاجها تفعيلٌ ثانويٌّ للجزء الخلفيّ من اللّسان المنتفخ، المتراجع إلى الخلف والمقترب في قِسْمه العلويّ كثيراً من اللّهاة، بينما يتسبّب قسمه الأدنى في خلق تضييقٍ على مستوى التّجويف الحلقيّ الأوْسط[28] Middle Pharynx Cavity.

أمّا التّحليق، فيوصف به ذلك الصّوت الذي يحدث في إنتاجه تفعيل المخرج الحلقيّ الأساسيّ المميّز للفتحة، وتفعيلٌ رئيسيٌّ للجزء الخلفيّ من اللّسان المنتفخ المتراجع إلى الوراء والمتسبّب في خلق تضييقٍ على مستوى التّجويف الحلقيّ الأعلى Lower Pharynx Cavity المميّز للضّمّة.[29]

لهذه الاعتبـــــــــارات، يمكن اِحتساب الجزء الخلفيّ من اللّسان والحلْق، باعتبارهما المتسبّبيْن في هذه الحالات الثّلاث، عضويْن ناطقيْن فاعليْن مشاركيْن في مسارات المماثلة المخرجيّة الثّانويّة الواقعة لأصواتٍ بعينها في اللّغة العربية المعاصرة توصف عادةً في الدّراسات الصّوتيّة بأنّها مُحلّقَة Pharyngealized لاشتراكها في ملْمح [حلْقي] مع الحلْقيّات رغم أنّ موضع نطقها الرّئيسيّ يقع خارج منطقة الحلق. ويمكن لنا أن نمثّل لهذا الإزدواج المخرجيّ الذي يتمّ فيه التّأليف بين ملمحين منْ شجرة الملامح هما الموضع [حلقي ثانوي] بالإضافة إلى المواضع الرّئيسيّة لهذا النّوع من الصّوامت، وفقاً لآليات هندسة الملامح، على الشّكل التّالي:

(1)

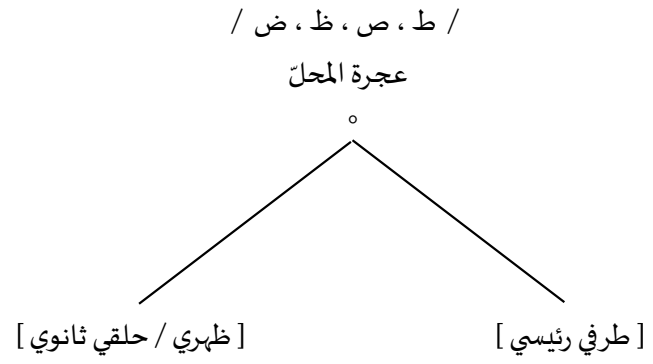
/ ط ، ص ، ظ ، ض /
عجرة المحلّ
[طرفي رئيسي]
[ظهري / حلقي ثانوي]

(2)

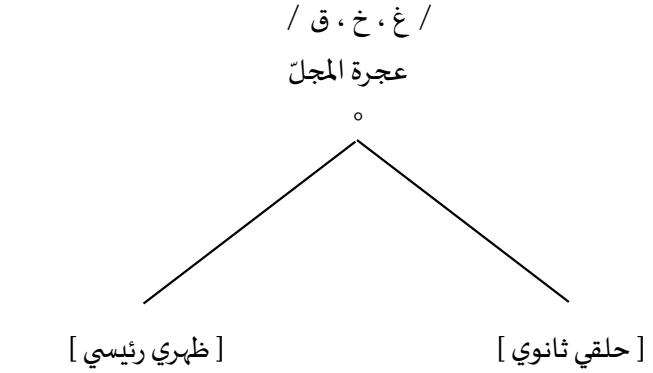
/ غ ، خ ، ق /
عجرة المجلّ
[حلقي ثانوي]
[ظهري رئيسي]

(3)

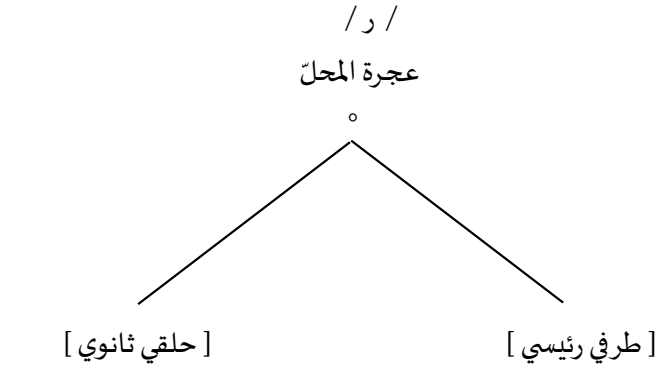
/ ر /
عجرة المحلّ
[طرفي رئيسي]
[حلقي ثانوي]

مماثلة الإطباق Velarization:

إنّ ذلك التّأثير الذي تسلّطه أصوات الإطبـــــــاق الأربعة (ص، ض، ط، ظ) على مجانساتها فتُضْفي عليها نوعاً من التّفخيم والتّغليظ، هو ما نريده بالمماثلة المخرجية الثّانوية الخاصّة بمَلْمَح الإطباق، وهذه مُعْطيات هذا النّوع من المماثلة:

عيّنة مُماثلة الإطباق: [30]

(4)

أ: إطباق اللاّم	ب: إطباق الباء	ج: إطباق السين	د: إطباق الواو
. ظُلْـــم	.أسباط	.يبْسُـط	.فوَّض
. طلبـــة	.بَسطة	.ســاطع	.وَصّى
.ضالّـين	.طبائـع	.مسَـلّط	.صوْم
. صلَــع	.ضبـاب	.بســاط	.وضَع
.مُلتصِق	.صَــبّ	.أسْباط	.وَظّف

هـ: إطباق الهمزة و: إطباق الميم ز: إطباق النّون ح: إطباق الحاء ط: إطباق الدّال

.أضـــاءَ	.مُصلـح	.نصيب	.أحــاط	.ضِـــدّ
.أصحاب	.مَطبـخ	.مناضل	.أصْحاب	.صمَـد
.أحــاط	.ضمان	.منْظوم	.حـــظّ	.عضُـد
.أظلَــم	.ظمـــأ	.نَطـوي	.ضُــحى	.ضفدَع
.ضائـع	.طماطم	.ظـــنّ	.صَحْـن	.منْطـاد

ط: إطباق العين ي: إطباق الشّين ك: إطباق الياء ل: إطباق الفاء م: إطباق الهاء

.عصـا	.شَيْطان	.يَبسط	.فَضـل	.هبَـط
.عضُد	.مُشــط	.لَيْطان	.أصفَح	.نهـوض
.بعْـض	.تشَـظّي	.ضَيْف	.طـفى	.صـهَل
.عظيم	.شبّوط	.صَيْف	.فَظائع	.هظْـم
.طُعْـم	.شَــطّ	.يَقِـظ	.فَصل	.أصهَب

يَظْهر، من خلال المُعْطيات في (4)، امتداد المخرج الثّانــوي [ظهري / حلقي] من الصّوامت المطبقة إلى الصّوامت المجاورة التي اختلفت عنها في ملمح [مطبق] فكانتْ مُنفتحة، والمتوقّع من النّاطق الحريص على تجاوز الفوارق الإخْراجيّة بين الأصوات، ألاّ يستسيغ الجمع، وبخاصّة إذا تعلّق الأمر بمستوى الكلمة الواحدة، بين ملمحين مُتناقضين، وهو حال الجمع بين الإطباق الذي في (الطّاء، والضاد، والصّاد، والظاء)، وحال الانْفتاح الذي في (اللام و الباء والسّين والواو والميم والنّون والدّال والهمزة والحاء والعين والهاء والشين والياء والفاء)، لما يشكّله ذلك من ثقلٍ نطقيّ على جهاز التّصويت، وما يتسبّب فيه من اِمْتعاظٍ ذوقيٍّ على مستوى الإسْماع، فيعْمد إلى إخراجهما بكيفيّةٍ تُبْعد تنافرهما عندما يُسوّي بينهما في النّطق فيَحسُنَ تلقّيهما في السّمع.

والمُلاحظ أنّ ملمح [الإطباق]، المميّز للصّوامت المُطبقة الذي يفعّله المخرج الثّانوي [ظهري / حلقي] الممتدّ يميناً وشمالاً باحثاً عن الصّوامت المجانسة حتّى يستقرّ عندها، يُلوّن كامل المجال بين القطعتيْن محلّ التّأثير؛ القِطْعة المُنْطَلق، والقطعة الهَدف، سواءً انتمتا لنفس المقطع أم كانتا من مقطعين مختلفين، بلون الإطباق، فتصبح القِطَع بين نقطتيْ التأثير مُطبقةً بدورها، تتساوى في ذلك الصّوامت والمصوّتات، فيجريها الجهاز التّصويتي إجراءً موحّداً ينتفي فيه توالي الانحدارات والعقبات اِقتصاداً في الجهد وتسهيلاً في حركة العضو النّاطق. يقول أحمد مختار عمر: «حينما يوجد صوتٌ ساكنٌ مفخّمٌ داخل المَقْطع، فإنّ كلّ المقطع يُفخّم، بل ربّما يمتدّ نفود الصّوت المفخّم إلى المقاطع المجاورة.»[31]

وحين مناقشتـــه للتّفخيم في الأمازيغية، رأى السّايب (1978) أنّه يمتدّ من الصّوامت المفخّمة مُعْجمياً ليشمل حيّزاً واسعاً من بنية الوِحْدة اللّغوية، ابتداءً من تلوينه لكامل القِطَع الموجودة في نفس المقطع بلون التّفخيم، ثمّ يمتدّ إلى القطع الموجودة في المقطع السّابق إذا كان مفتوحاً، وأخيراً يمتدّ إلى القطع الموجودة في المقطع اللاّحق إذا كان المقطع الذي يضمّ الصّامت المُفَخّم مفتوحــاً.[32]

ولعل مماثلة الإطباق هذه هي استمرار لنطقٍ كان سائداً في العربية النّموذجية وبخاصّة في تلاوة القرآن الكريم، وقد وسعت حيّزاً مهمّاً من انشغالات النّحاة القدامى وعلماء القراءات من أمثال أبي عمرو عثمان بن سعيد الدّاني الأندلسي (ت 444 هـ)، أو علماء التّجويد من أمثال مكّي بن أبي طالب القيسي الأندلسي (ت 437 هـ)، ممّن كانوا يبحثون على توفير شروط الآداء السّليم والنّطق الصّحيح لأصوات النصّ القرآني. وقد تحدّدت عندهم في الأعمّ الأغلب في صيغة «الافتعال» في مثل (اِصْتَبرَ، اِطْتَلعَ، اِظْتَلَمَ، اِضْتَجَعَ، اِصْتَدمَ، اظْتَعَن، اضْتَرب) التي وجدوا فيها سياقاً ملائماً لاشتغالها،

حيث تماثل تاؤها المنفتحة الفاء المطبقة الواقعة صاداً، أو ضاداً، أو طاءً، أو ظاءً، فتتحوّل إلى نظيرها المطبق (اِصْطَبرَ، اِطْطَلعَ، اِظْطَلَمَ، اِضْطجَعَ، اِصْطدمَ، اظْطَعَن، اضْطَرب)[33]، يقول ابن جنّي: «ومن ذلك أن تقع فاء اِفْتَعَل صاداً، أو ضاداً، أو طاءً، أو ظاءً، فتُقلب لها تاؤه طاءً.»[34] وقال ابن يعيش: «كرهوا الاتيان بحرفٍ بعد حرفٍ يضاده وينافيه، فأبْدلوا من التّاء طاءً لأنّهما من مخرجٍ واحدٍ...وفي الطّاء استعلاءٌ وإطباقٌ يوافق ما قبله ليتجانس الصّوت، ويكون العمل من وجهٍ واحد، فيكون أخفّ عليهم ... والغرض من ذلك كلّه تجانس الصّوت وتقريب بعضه من بعض، والملاءمة بينهما.» [35]

وقد ردّ ابن عصفور إطباق التاء في مثل هذه السّياقات إلى الفارق الملمحي الكبير الذي يفْصل بينها وبين الصّوامت المتواردة معها في البناء الصرفي الواحد، يقول: «والتّباعد الذي بين التّاء وبين هذه الحروف، أنّ التّاء مُنْفتحة مُستفلة، وهذه الحروف مُطْبقة مُسْتعلية، فأبدلوا من التّاء أختها في المخرج، وأخت هذه الحروف في الاستعلاء والإطباق وهي الطّاء.» [36]

والظاهر أنّ تأثير صوامت الإطباق في الصوامت المنفتحة المجاورة، في النّطق العتيق للّغة العربيـــــة إذا استثنينا جانب التّلاوة الشّريفة، لم يقتصر على إطباق تاء «الافتعال»، بل ربّما تعدّاه إلى تأثيرها في صـــــوامت منفتحة أخرى، غير السين في مثل (سِراط وَ صراط ، مسيطر وَ مصَيطر) ، واقعة خارج صيغة «الافتعال»، إلا أنّ علماء اللّغة القدامى لم ينتبهوا إلى ذلك لتعويلهم أكثر على جانب الكتابة التي أسعفتهم ربّما في توضيح التّأثير فيما يخص إطباق تاء الإفتعال ولم تبيّنه فيما سوى ذلك.

مماثلة الاستعلاء Uvularisation:

تؤثّر الصّوامت اللّهوية (غ، خ، ق) باستعلائها في تفخيم صامت «السّين» الذي يوصف بأنّه مُسْتفل في كثيرٍ من السّياقات الصّوتية الصّرفية في العربية المعاصرة كما هي منطوقة في الجزائر فتُصبح صاداً بعدما تسرّب إليها المخرج الثّانوي [حَلْقي] المحقّق عبر التّجويف الحَلقيّ الأوسط في مماثلةٍ مخرجيّةٍ لا تختلف كثيراً عنْ تلك التي رأيناها مع الصّوامت المُطبقة، فتقرّب السّين من هذه الصّوامت فِراراً من الطّفرة التي تفصلها عنها في عمليةٍ تجميلية تهدف إلى إشاعة الانسجام والتّناسق بين الأصوات.

فتفخيم السّين في مثل هذه السّياقات المذكورة حين مجاورته للّهويات، أصبح قياساً يكاد يكون مطّرداً في العربية المعاصرة المتداولة نطقاً عند المثقفين الجزائريين.

وهذه عيّنةٌ من مدوّنة تفخيم السّين حين ورودها قبل اللّهويات:

العيّنـــة:

(5)

أ:

.ســـاق

.إسحاق

.أسْبَـــغ

.رُسْـــغ

.يسْخَـر

إنّ ما يُستشَـــــــــفّ منْ هذه المُعطيات، أنّ صامت «السّين» المُسْتفل تصيبه الصّوامت اللّهوية الثّلاثة بمخرجها الثّانـــــوي [حلقي] الممتدّ يميناً، على اِعتبار أنّ مخارج الصّوامت اللّهوية مركّبةٌ في العربية من مخارجَ رئيسةٍ ، وأخرى ثانويةٍ ، وهي المُخصّصة بالامتداد ومماثلة مخرج السّين قبلها، فتستغلي (أيْ السّين) بدورها فتصبح «صاداً» مماثلةً للّهويات في اِستعلائها، وتكون العربية المعاصرة بذلك قدْ ساوتْ بين المُستفل والمستعلي فجعلتهما في نفس المستوى، وهو مستوى الاستعلاء في محاولة منها التّوصّل إلى الأشكال النّطقية المرغوبة التي ينتفي فيها ذلك التّناقض المَلْمحي والجمع بين الاستعلاء والاستفال، حيث لا يَحسن التّأليف بينَهما في نفس البنية المورفولوجية، وبذلك أصبحت الوحدات اللّغوية أكثر تناغماً لِما أبدته من اِنسجام بين قطعها الصّوتية، ومن شأن هذا الإجراء أن يُخَفّف على النّاطق تحقيقهما بكلّ يسرٍ وسهولة.

إلاّ أنّ المُلاحَظ هنا هو أنّ كامل المجال الواقع بين نقطتَيْ التّأثير، يتلوّن بملمح الاستعلاء، سواء في ذلك الصّوامـــــــــت والمصوّتات، عندما يلامسه المخرج الثّانوي [حلقي] المارّ عبره من اللّهويات إلى السّين.

وإذا رجعنا إلى النّطق العتيق للّغة العربية كما تحدّث بها أسلافنا، وجدنا أنّهم استحسنوا هذه المماثلة المخرجية الواقعة بين المخرج الثّانوي [حلقي] المميّز للصّوامت اللّهوية الثّلاثة (غ، خ، ق) الذي يمثّل مَلْمح الاستعـلاء عند القدامى[37]وصامت «السّين» فتحدّثوا بها ودوّنوها في كثيرٍ من كتاباتهم، يقول ابن جنّي في المحتسب: «وذلك أنّ حروف الاستعلاء تجْذب السّين عن سفالها إلى تعالِيهنّ، والصّاد مُسْتعليةٌ، وهي أخت السّين في المخرج.»[38] وقد قُـــــــرئ بالوجهين في القرآن الكريم، يقول ابن جنّي مرّةً أخرى في السِّرّ: «وإذا كان بعد السّين: غينٌ، أو خاءٌ، أو قافٌ ... جـــــاز قلبها صاداً، وذلك قولـــــــه تعالى: ﴿كَأنّما يُساقون﴾[39] وَ: يُصاقون، وَ﴿مَسّ سَقَر﴾[40] وَ: صَقَر،

و﴿سَخّرَ الشّمْسَ و القَمَر﴾[41] وَ: صخّر، وَ: ﴿أسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَه﴾[42] وَ: أصْبَغ...»[43]

تطبيق Pharyngealisation صامت الرّاء في العربية المعاصرة:

والمقصود بتّحليـــــق الرّاء تفخيمها إذْ نعتبرها صامتاً وسطي التّفخيم، مماثلةً لمخرجيْ المصوّتين الضّمّة والفتحة الممتدّين إليها في الإتّجاهين، وهي حالة مناقضة لحالة تحنيك الرّاء، بمعنى ترقيقها. فالرّاء المحلّقة، تماثل الضّمّة في مخرجها الرّئيسي وصوامت الإطباق في مخرجها الثّانوي [ظّهري / حلقي] الذي تفعّله كتلة اللّسان المتراجعة إلى الوراء، المنتفخة والمتسبّبة في خلق تضييق على مستوى التّجويف الحلقي الأعلى Upper Pharynx Cavity، وتماثل الفتحة في مخرجها الرّئيسي [حلقي] الذي حصل به بعض التّضييق بفعل الضّغط الممارس عليه من طرف كتلة اللّسان المتراجعة إلى الوراء، وبهذه المماثلة تكون الرّاء قد عدّلت من هيْأتها، فتأخّرت بمخرجها تجاه مخرجيْها فأصابها تحليقها فأصبحت محلّقة كحالة من التّماثل الجزئي القائم على التّسوية بين المصوّتات والصّوامت والباحث على إمكانية معالجتها فونيتيكياً في مستويات مسطّحة تضمن قدراً كبيراً من الرّاحة للأعضاء النّطقية في انتقالها من إخراجٍ إلى إخراج، ومن وضعٍ إلى وضع.

والتّماثل الجزئي عموما لا يخرج عن كونه امتداد «ملمحٍ أو أكثر إلى فونيمات غير متجاورة بالضّرورة.»[44]

نقوم ابتداءً بتحديد عيّنةٍ دالّةٍ تضمّ مجموعة من السّياقات التي ترد فيها الرّاء مفخّمة من أجل الوقوف على العناصر الصّوتية الفاعلة المؤثّرة في كلّ سياق.

حالات تطبيق الرّاء، العيّنة:

(6)

_ دار

_ رُمّـان

_ أدرَك

_ عُـرْب

_ ضَيْـر

_ صِرْف

_ أرض

تظهر هـــذه العيّنة حصول تحليق صامـــت «الرّاء» بعدما امتـــدّ إليه المخرج [ظهري / حلقي] و [حلقي] في الاتّجاهين يميناً وشمالاً. فالرّاء تتأثّر سياقياً حين مجاورتها اللّصيقة أو غير اللّصيقة؛ القبلية أو البعدية، لصوامت الإطباق وكذا للمصوّتين الخلفيين الضّمّة أو الفتحة؛ القصـــيرة أو الطّويلة، فتماثلها في مخرجها؛ [ظهري / حلقي] و [حلقي] عندما يمتدّا إليها حيث يأخذا وضعاً نطقياً ثانوياً فيها مميّزاً للوضعية الفونيتيكية الجديدة للرّاء المفخّمة.

والذي يمكن أن نسجّله هنا هو أنّ الملمح [حلقي] بإمكانه أن ينتشر يميناً ويساراً فيلوّن كامل المقاطع المجاورة بملمح التّحليق، وعندها تصبح عناصر البنية الصّرفية جميعها محلّقة.

والواقع أنّ مثل هذا النّوع من المماثلة وهذا الامتداد المخرجي [ظهري / حلقي] و [حلقي] بين صوامت الإطباق أو الضّمّة أو الفتحة والرّاء، يستوي في ذلك استباقها للرّاء أو تأخّرها عنها، انفصالها عنها أو التصاقها بها، قد دارت حوله كثير من الدّراسات العربية الأصيلة التي يعود بعضها إلى القرون الهجرية الأولى عندما حاول علماء اللّغة الأوائل وصف الظواهر الصوتية الصّرفية، ومنها ظاهرة تحليق «الرّاء» المعروفة في اصطلاحاتهم بـ: «تفخيم الرّاء» المميّزة للنّطق السّليم للّسان العربي، فلم يكن إطلاقاً من صنع العربية المعاصرة بقدر ما يمثّل امتداداً لنطقٍ أفرزته ظروف سياقية ظهرت على لسان النّاطق العربي القديم.

هوامـــش المقال:

(1) ينظر: لويس جان كالفي، عِلم الاجتِماع اللّغويّ، ترجمة محمد يحياتن، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2006، ص: 11.

(2) ينظر : حلمي خليل، المولّد في العربيّـة، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط 2، 1985، ص: 33.

(3) ينظر : عبد الجليل مرتاض، اللّغة والتّواصـل، دار هومة ، الجزائر، د. ط.، 2000، ص: 8 .

(4) جوزيف فندريس، اللّغـــة، تعريب: عبد الحميد الدّواخلي ومحمد القصّاص، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، د .ط، 1950، ص: 35.

(5) ابن جنّي، الخصائـــص، تحقيق محمد علي النّجار، المكتبة العلمية، د. ط.، د. ت ، ج 1 / 33.

(6) ينظر : محمد عبدو فلفل، اللّغة العربيّة ثوابتٌ ومتغيّرات، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2002، ص: 8.

(7) ينظر : نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، المجلس الوطني للثّقافة

والفنون والآداب، الكويت، العدد 9، 1978، ص: 31.

(8) فخر الدين قباوة، الاقتصاد اللّغوي في صياغة المفرد، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، لونجمان، ط1، 2001، ص: 31 .

(9) أندري مارتيني، مبادئ في اللّسانيّات العامّة، ترجمة: سعيدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، د. ط.، د. ت.، ص: 154.

(10) السّابـــــــق، ص: 153.

(11) ينظر: السّابــق، ص: 155.

(12) فلوريان كولماس، اللّغة والاقتصاد، مراجعة عبد السّلام رضوان، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويـــــــــــــــــــــــت، نوفمبر، 2000، ص: 290.

(13) ينظر: السّابق، ص : 307 . وينظر كذلك: مبادئ في اللّسانيّات العامّة، ص: 155.

(14) أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللّغـويّ، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1985، ص: 319.

(15) ينظر : أحمد طيبي، الاقْتِصاد الموْفونولوجيّ في التّواصل اللّسانيّ، عالم الكتب الحديث، إربـــــــد، ط1، 2010، ص: 9.

(16) شعبان عوض محمد العبيدي، التّعليل اللّغويّ في كتاب سيبويه، جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1999، ص: 192.

(17) نقلاً عنْ: أحمد عفيفي، ظاهرة التّخفيف في النّحو العربيّ، الدّار المصرية اللّبنانية، ط1، 1996، ص: 17 – 18.

(18) تمّام حسّان، مقالات في اللّغـــــــة والأدب، جامعة أمّ القرى، معهد اللّغة العربيّة، مكّة المكرّمـــــــــــــــــــــة، 1985، ص: 292.

(19) فلوريان كولماس، اللّغة والاقتصاد، ص: 279.

(20) ينظر: السّابـــــــــــــــــق، ص: 290.

(21) شاع ـ في الدّراسات الصّوتيّة العربيّة القديمة ـ استعمال مصطلح التّفْخيم Emphase للدّلالة على الإطْباق Velarization. ينظر: سلمان العاني، التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة؛ فونولوجيا العربيّة، ترجمة: ياسر الملاح، مراجعة: محمد محمود غالي، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة، ط1، 1983، ص: 71.

(22) See: El Medlaoui, M. (1995); Aspects des représentations phonologiques dans certains langues chamito-sémitiques, publié par : Faculté des Lettres et des sciences humaines, Rabat, 1ère Edition, 1995, P. 161

(23) See: McCarthy (1994), The Phonetics and Phonology of Semitic Pharyngeals, Papers in Laboratory Phonology 3, edited by Patricia, A. Keating, Cambridge Uni versity Press

(24) ينظر بهذا الخصوص: El Medlaoui (1995), Herzallah (1990), McCarthy (1994), Watson (1999) وغيرهم ....

(25) See: El Medlaoui, M. (1995); P. 161

(26) See: Ibid

(27) التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة؛ فونولوجيا العربيّة، ص: 71.

(28) See: Herzellah, S.R., (1990); Aspects of Palestinian Arabic Phonology: a Non - linear Approach, Working papers of the Cornell Phonetics Laboratory, No 4, 1990, P. 47

(29) See: El Medlaoui, M. (1995); P. 162

(30) حرصنا على عدم التّمثيل لإطباق تاء « الافتعال « في العربية المعاصرة رغبة منّا في عدم التّكرار، كون هذه الحالة النّطقية مطّردة كثيراً وهي من بديهيات النّطق العربي عامّة قديمه ومعاصره.

(31) دراسة الصّوت اللّغوي، ص: 329.

(32) ينظر : جورج كليمنتس وكايزر صامويل، الفونولوجيا المقطعية؛ نحو نظرية توليدية للمقطع، ترجمة: مبارك حنون وأحمد العلوي، مطبعة يليكي إخوان، طنجة، د. ط.، 2003، ص: 8.

(33) ينظر: أحمد طيبي، الاقتصاد المورفونولـــــــــوجي في التّواصل اللّساني، ص: 51-50.

(34) الخصائـــــــــــــص، 2 / 141.

(35) موفّق الدّين ابن يعيش، شرح الملّوكي في التّصريف، تحقيق: فخر الدّين قباوة، دار الملتقى، حلب، ط3، 2005، ص: 317 – 318.

(36) ابن عصفور، الممتع في التّصريـــــف، تحقيق: فخر الدّين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديـــــــدة، بيروت، ط3، 1978 ، 1 / 360.

(37) ينظر: أحمد طيبي ،الاقتصـــــــــاد المورفونولوجي في التّواصل اللّساني، ص: 84-83.

(38) ينظر: ابن جنّي، المحتســـب، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، 2 / 212.

(39) الأنفـــال 6.

(40) القمـــر 48.

(41) الرّعـــد 2.

(42) لقمـان 19.

(43) ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط1، 1985، 1 / 211 – 212، وينظر كذلك: الخصائص، 1 / 374.

(44) See : Halle, M & Vergnaud, J. R (1982) , Processus d' harmonie, in Grammaire Transformationnelle, Paris 8, p. 231